بريطانيا وسر قوتها

من حق حليفتنا العظيمة علينا أن نتناولها بشيء من البحث بين حين وحين . فقد ارتبط تاريخنا القومى بتاريخ بريطانيا وإمبراطوريتها ارتباطاً مباشراً خلال هذه السنوات السبعين الأخيرة ، وارتباطاً غير مباشر فيما سبق ذلك من سنين . بل إن ما بيننا وبين تلك البلاد من أسباب إنما يرجع إلى أيام أن سعى البريطانيون إلى أرض مصر يحاربون على أبوابها أسطول نابليون أيام الحملة الفرنسية . . . ولقد كنا ننظر إلى بريطانيا خلال هذه السنوات الطويلة نظرات تختلف بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً ؛ حتى استقرت بنا الحال آخر الأمر فاتخذنا منها حليفة عظيمة ، أخلصنا لها الصداقة فى كثير من أوقات المحنة وساعات الشدة ، وإن كانت لم تذكر لنا كل ما ينبغى أن تذكره أيام السلم وساعات الرخاء . ولسا ـد فى هذا المقال أن نتناول ما بيننا وبينها من أسباب قد يختلف فى تقديرها الناس ، فيرى فريق منهم أنها تقوم على أساس من المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة ، ويرى فريق آخر أنها تقوم على صداقة من ذلك النوع الذى قال فيه الشاعر إنه ليس منه بد . وإنما نود أن نسجل أن هذه الأسباب والصلات ، مهما يكن مردها ومرجعها ، فإنها تفرض علينا — ولمصلحتنا نحن — أن نحاول أن نتعرف شيئاً عن تاريخ بريطانيا الحديث ؛ لعلنا أن ندرك بعض مصادر القوة وأسرارها فى حياة هذه الحليفة التى كان لها أثر خطير فى توجيه كثير من شؤوننا القومية فى العهد الحديث . وخير لنا فيما نحن بسبيله من جهاد أن نكون بصيرين بهذه القوة التى ندافعها وتدافعنا من أن نغض الطرف عن أسرارها ، ولا نبالى بمعرفة شيء عنها .

وبريطانيا جزيرة صغيرة ، تجاورها جزيرة أخرى أصغر منها ، وعدد من الجزر المنتشرة حولها فى الجنوب والغرب والشمال . ولا تكاد تجاوز مساحتها جميعاً ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع ، أو أقل من ½ ٪ من سطح اليابس ؛ ولا يكاد

سكانها جميعاً يجاوزون ٥٠ مليوناً أو حوالى ٢½ ٪ من مجموع سكان الأرض. وتقع تلك المجموعة من الجزر فى منطقة نائية بالنسبة للعالم القديم ؛ فهى فى أقصى شمال أوربا الغربى ، بعيدة عن قلب العالم ، حيث نشأت الحضارات القديمة ، وحيث ظهر التاريخ وازدهرت المدنية فى وقت كانت فيه تلك الجزر فى دور بدائى ، وكان أهلها يعيشون على هامش الحياة ، يسكنون الكهوف أو ما يشبه الكهوف ، ويعيشون على صيد البر والبحر ، وعلى شىء قليل من الجمع والالتقاط ، قد انزووا فى جزرهم النائية بعيداً عن العالم ، وقبعوا هناك لايعرفون شيئاً عن الناس ، ولا يكاد الناس يعرفون عنهم شيئاً .

وبقيت الحال كذلك حتى عهد الكلتيين الذين سبقوا الرومان ووطدوا العلاقة بين بعض أجزاء بريطانيا الغربية وبين شمال فرنسا وغربها . ثم جاء الرومان أنفسهم فغزوا بريطانيا ، وفتحها يوليوس قيصر ، وامتد استعمار الرومان حتى أطراف أسكتلندة الجنوبية ، ونفذت معه بعض معالم المدنية الرومانية إلى الجزر البريطانية ، ثم تلا ذلك اتصال متعاقب بين الجزر والقارة ، فوصلت بعض موجات من الغزاة والفاتحين والمهاجرين من النرمنديين والسكسونيين وغيرهم . ومع ذلك كله فقد بقيت الصلة بين بريطانيا والقارة ضعيفة محدودة ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، فأخذت بريطانيا معالمها عن القارة ، وعاصر ذلك إلى حد كبير ظهور الاستكشافات البحرية إلى أمريكا والهند وغيرها من بقاع الأرض فيما وراء البحار ، وسعت أوربا حثيثاً إلى أن تتصل بالعالم الخارجى لتتجر معه أو لتستعمره . وهنا برزت قيمة الموقع الجغرافى للجزر البريطانية كمحطة عند باب أوربا الخارجى فى عرض المحيط ، وبدأت بريطانيا رويداً رويداً تتزعم حركة التوسع الأوربى إلى الخارج ، فبنت قوتها البحرية العتيدة ، وتغلبت على الأسبان والهولنديين وغيرهم ممن حاولوا التحكم فى مخارج البحر ومسالكه . ثم جاءت فى أعقاب ذلك النهضة الصناعية المعروفة ، التى ساهم فيها العلم والتطبيق العملى ، فظهر لون جديد من المدنية المادية التى تستند إلى استغلال موارد القوى المحركة والصناعة الآلية فى نطاق متسع . وهنا أيضاً برزت قيمة بريطانيا التى جمعت إلى غناها بالموارد المعدنية الصناعية اتصالها الوثيق بالعالم الخارجى ، حيث يمكن استجلاب المواد الخام التى لا تنتجها أوربا ، حيث يمكن تصريف المصنوعات الحديثة فى أسواق لم يكن

من العسير استغلال أهلها فى تجارة ، لا يمكن أن يستوى فيها جهل المشترى وغفلته ، بعلم التاجر وفطنته . وهكذا انتهى الأمر بأن غدت بريطانيا دولة قوية ، بل نواة لإمبراطورية امتدت فيما وراء البحار ، حتى صارت أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .

وقد لا يكون من اليسير تعليل هذا الدور الكبير الذى كتب لبريطانيا وجزرها الصغيرة أن تلعبه فى تاريخ العالم الحديث ، والذى لا يتناسب مع ما نعرف عن هذه الجزر من صغر المساحة وقلة السكان ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرض لعدد من العوامل الأساسية التى مهدت لهذا الدور . وبعض هذه العوامل طبيعى ، يتصل بطبيعة الجزر نفسها وبمواردها الطبيعية ومناخها وموقعها الجغرافى وغير ذلك ، وبعضها الآخر بشرى يتصل بالسكان وتكوينهم ومقدرتهم على استغلال ظروف البيئة والموقع الجغرافى . بل إن بعض تلك العوامل لا يتصل ببريطانيا ذاتها ، ولا بأهلها وحدهم ؛ وإنما يمتد إلى خارج الجزر ، فى القارة المجاورة ، أو بعيداً عنها فيما وراء البحار .

والذى يدرس الجزر البريطانية دراسة مفصلة لا يلبث أن تأخذه حقيقة جغرافية رائعة . . . ذلك أن هذه الجزر على صغرها معقدة التركيب والتكوين إلى حد غريب ؛ فهى مكونة من صخور مختلفة ، يرجع أقدمها إلى أبعد الأزمنة الجيولوجية ، ويرجع أحدثها إلى الزمن الجيولوجى الأخير ، وهى تكاد تشمل الأزمنة والأعصر الجيولوجية جميعاً . ثم إن هذا التنوع فى أعمار الصخور وعصور تكوينها يزيد من تعقيده أن الصخور من أنواع مختلفة ، منها النارى والرسوبى والمتحول ، ومنها الطينى والرملى والجيرى وغير ذلك . وقد كان لهذا التنوع والتعقيد فى أنواع الصخور وأعمارها ، وكذلك فى تركيبها وبنيتها ، أثره الكبير فى غنى الثروة المعدنية وتوافرها . ومن المسلم به أنه كلما تباينت الصخور وتنوعت زاد احتمال العثور على المعادن ذات القيمة الصناعية بين طبقاتها . ولو أن بريطانيا كانت بسيطة التكوين نسبيًّا ما توافرت لها كل تلك الثروة المعدنية التى كانت أساس النهضة الصناعية فى العهد الحديث . . . بل ما توافرت لها بعض المقومات الاقتصادية الأخرى التى ترجع إلى التكوين الجيولوجى ، ومنها جودة التربة الركامية وغيرها فى المناطق السهلية ، والجهة الجنوبية الشرقية من انجلترا بصفة خاصة ، مما يسر لبريطانيا فى بعض فترات أن

تضاعف إنتاجها الزراعي فى الأغذية ، كما حدث إبان هذه الحرب المنتهية .

وإلى جانب هـذا التنوع فى التكوين الجيولوجى للبيئة البريطانية ، هناك تنوع آخر فى التكوين البشرى لسكان تلك الجزر فبريطانيا وأخواتها جزر يفصلها عن القارة بحر ضيق ، عبرته دفعات متتالية من المهاجرين الذين استقرت بهم الحال هناك ؛ فهى لم تكن فى تاريخ عمرانهـا الجنسى مجرد معبر أو طريق هجرات ، كما حدث فى بعض جهات القارة ، وإنما تجمعت فيها العناصر المختلفة ، واختلط بعضها ببعض ، حتى إنه ليقال عن البريطانيين كما نعرفهم الآن إنهم يتكونون فى الأصل من ثمانى سلالات متباينة ؛ فمنهم النوردى الأشقر الممشوق القـامة ، والذى أتى من اسكندناوة وأقصى شمال أوربا ؛ ومنهم الألبي الربعة العريض الرأس ، الذى أتى من وسـط القارة ؛ ومنهم عنصر البحر الأبيض المتوسط المعتدل القوام الأسمر الشعر والبشرة ، والذى أتى من جنوب أوربا الغربى ، ووصل بريطانيا دائراً مع البحر والساحل ؛ ومنهم السكسونيون والنرمنديون وغيرهم من العناصر المختلطة الدم والتكوين ، والتى لايتسع المقام هنا لسردها وذكر أصولها وأنسابها وطرق هجراتها قبل أن تبلغ هامش القارة .

ولـكن الشئ المهم أن هذا التنوع الجنسى فى تكوين البريطانيين معناه تنوع الملـكات والاستعداد بين سكان الجزر . ومع أن هذا التنوع والاختلاط كان مصدر تفكك وضعف بين السكان فى العهود القديمة وبعض العهود الوسيطة ، فقد استحال بالتدريج إلى امتزاج وتزاوج بين العناصر المختلفة ، تحقق معه فى العهد الحديث مايسميه البريطانيون «الوحدة فى التنوع» unity of diversity وبذلك صار تنوع العناصر واختلاف السـلالات بين سكان الأمة المتحدة أو المملـكة المتحدة فى انجلترا واسكتلندة وبلاد الغال وإيرلندة (أو جزر منها) وبقية الجزر المتناثرة ، عامل قوة وتماسك فى العهد الحديث ، بعد أن كان عامل ضعف وتفكك فى العهود السابقة .

وهنا لابدَّ لنا من أن نشير إلى نظرية جنسية كثر الـكلام عليها فى السنوات الحديثة . تلك التى تقول بضرورة نقاء الجنس أو السلالة ليصبح التكوين القومى للأمة متجانساً قويًّا . وقد حاولت الفلسفة النازية فى ألمانيا الهتلرية أن تطبق تلك النظرية فى شىء كثير من المغالطة العلمية ؛ فادعت أن الألمان آريون ، أو أنهم على الأقل ينبغى أن يكونوا جميعاً من الآريين الخالصين . ومع أن لفظ

« آرى » هذا ليست له على التحقيق دلالة جنسية صادقة ، نظراً لاختلاط الدماء والسلالات بين المجموعة الآرية من بنى البشر ، فإن الألمان النازيين قد تمكنت منهم فلسفة النقاء الجنسى إلى درجة التعصب ، فعملوا على إقصاء كثير من العناصر غير الآرية ، بصرف النظر عما قد يكون لها من قيمة فى تكوين الأمة الألمانية . أما البريطانيون فقد كانت نظريتهم على نقيض ذلك تماماً ؛ فهم قد استمسكوا « بوحدتهم المتنوعة » ؛ وهم قد نظروا إلى اختلاط الدماء فيهم على أنه مصدر قوة يعتز بها ويحافظ عليها ؛ ولا بأس — بل قد يكون من الخير — أن يُداوم على تغذيتها بدماء جديدة من الخارج . ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الأيام والتجربة قد أثبتت صحة النظرية البريطانية ورجحانها على نظرية النقاء الجنسى . . . ولعل هذه الأيام والتجارب نفسها تزيد من إثبات نظرية الاختلاط والتنوع عندما يزداد بروز قيمة هذا العامل فى مستقبل بلاد كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ، حيث تتنوع السلالات وتختلط الدماء إلى حد يفوق فى مداه ومقداره ماحدث فى بريطانيا على نطاق مصغر .

إذن كان هناك تنوع فى مظاهر البيئة الطبيعية فى بريطانيا ، يعادله تنوع فى سلالات السكان ومزاياهم ومؤهلاتهم . على أننا فى استعراض التكوين الجنسى لسكان هذه الجزر ينبغى أن نلحظ أثر البحر الذى يفصل بين بريطانيا والقارة ؛ فهو لم « يقطع » صلة الجزر بالقارة تماماً ، وإنما « نظّم » تلك الصلة ، وكان بمثابة المصفاة للعناصر والهجرات التى تقدمت من ناحية الشرق واتجهت غرباً ، حتى إذا ما وصلت إلى شواطىء أوربا وحافتها الغربية قعدت العناصر الخاملة والقانعة منها ولم تشأ أن تغامر فتعبر البحر إلى جزر لا تعرف من أمرها وظروف المعيشة فيها شيئاً ؛ أما العناصر المخاطرة والمغامرة فلم يقعدها البحر ، وإنما كان حافزاً لها على أن تستطلع ما وراءه . وهكذا كان البحر مصفاة كما ذكرنا ، فلم يصل إلى بريطانيا على وجه العموم غير العناصر المخاطرة التى لايخيفها البحر ولا تقعدها أخطاره . ولعلنا نجد فى ذلك مايفسر لنا نشاط أهل بريطانيا فى العهد الحديث ؛ فهم قد تجمعوا فى جزرهم ، حتى إذا ما تهيأ الظرف المناسب وحانت الفرصة المواتية بعد عصر الاستكشافات البحرية وظهور الاستعمار ، انتشر سكان بريطانيا المنحدرون من سلالة أولئك المخاطرين الأول ، فجابوا وجه الأرض ، وكوّنوا إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فيما وراء البحار ،

وعمروا كثيراً من أقطار العالم الخالية إذ ذاك فى أمريكا الشمالية واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب إفريقية وغيرها . . . ولو أن سكان بريطانيا كانوا كغيرهم من سكان الشواطىء المواجهة من أوربا الغربية ما استطاعوا أن يقوموا بذلك الدور الاستعمارى الفريد ، وعلى الوجه المعروف فى التوسع البريطانى ، الذى كان لابد أن يقوم به عنصر عريق فى المغامرة وركوب الأخطار .

وهناك عامل آخر كان له أكبر الأثر فى شحذ نشاط سكان بريطانيا ، وفى حفز هممهم على العمل والكفاح الذى يتطلبه العهد الحديث وحضارته المادية . ذلك أن المناخ هنا من ذلك النوع المعتدل البارد الذى يعين على النشاط الجسمانى ، ويستلزم الحركة الدائبة ؛ فلا هو مناخ حار يتراخى له الجسد ، وتخمد الهمة وتفتر الحركة ، ولو فى فصل من العام ؛ ولا هو مناخ قارس يجمد له الجسم وتشل الحركة ويقف العمل فى أشهر الشتاء ؛ وإنما هو مناخ بارد قد لطفه المحيط وتياراته الدفيئة ، بحيث أصبح مناسباً أشد المناسبة للعمل الدائب والجهاد الذى لايكاد يأخذه إجهاد . وفوق ذلك كله فهو مناخ قُلّب ، تتنازعه مؤثرات القارة المتطرفة ومؤثرات المحيط الملطفة ، فيؤدى ذلك إلى كثرة التغيير فى ظروف الطقس من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ؛ كما يؤدى إلى كثرة الزوابع والأعاصير التى لايستقر معها الجو على حالة واحدة . وبهذا كله أصبح الطقس غير مضمون ، ولا يمكن التنبؤ به ؛ فعلّم ذلك السكان الحذر وبعد النظر ، بل عدم التواكل وشدة الاحتياط ؛ كما علّمهم الجلد والمصابرة وترقب الفرج مهما طال انتظاره . وهذه كلها صفات نلمسها فى الخُلق البريطانى ، إذا ما نحن درسناه عن كثب . . . والمدهش الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن البريطانيين فوق استجابتهم لمقتضيات مناخهم وطقسهم الخاص ، قد شعروا فيما بينهم وبين أنفسهم بما لهذا المناخ والطقس من قيمة ينبغى أن يُعترف بها اعترافاً شعبيًّا ؛ فصار الجو والطقس حديثهم اليومى المعتاد ، لايكاد يلقاك أحدهم حتى يبادرك بالتحدث عنهما ، حديثاً ملؤه التبرم الهادئ الرزين ، أو الرضا الذى لايجنح إلى إسراف ، أو الأمل المقتصد فى أن تتحسن الحال !

ثم عامل طبيعى آخر كان له أثره الظاهر هو الموقع الجغرافى لهذه الجزر على حافة المحيط فى شمال القارة الغربى . وقد أثر هذا العامل فى نواح ثلاث : أولاها ما كان من أن بحر الشمال ومياه المانش لم تقطع الصلة بين الجزر والقارة ، وإنما

« نظمت » الاتصال بينهما على نحو مافعلت الصحراء المصرية مثلا بين وادى النيل وبقية بلدان الشرق . . . وقد ترتب على ذلك أن بريطانيا أفادت من صلاتها بأوربا ، فوصلتها معالم المدنية الأوربية من جنوب القارة ووسطها وشمالها ، ولكن وصول تلك المعالم كان على دفعات متقطعة وبمقادير محدودة لم تطمس شخصية أهل الجزر ، الذين استطاعوا أن يحتفظوا على الدوام بطابعهم الحضارى الخاص . ولعل هذا هو السر فيما عرف عن البريطانيين من روح التحفظ بإزاء القارة ؛ فهم يتصلون بها ويأخذون عنها ويتدخلون فى شؤونها بين حين وحين ، ولكنهم مع ذلك لايندمجون فيها ، بل ينظرون إلى جزرهم على أنها ذات كيان مستقل وشخصية قائمة بذاتها ؛ فاتصالهم بأوربا يجب أن يبقى فى نظرهم داخل حدود معينة ونطاق مرسوم لايتعداه إلى خصائص الحياة البريطانية .

وأما الناحية الثانية التى أثر فيها الموقع الجغرافى للجزر البريطانية ، فتتمثل فى أنها تقع عند أبواب القارة البحرية فى الشمال الغربى . وقد انتقل مركز المدنية فى أوربا الحديثة إلى سهولها الشمالية ؛ وبذلك انتقل المدخل الأساسى للقارة فى احتكاكها مع العالم الخارجى من سواحل البحر المتوسط وأشباه جزره إلى سواحل الأطلسى فى شمال أوربا الغربى ، وتحكمت بريطانيا بفضل موقعها الجغرافى فى ذلك المدخل ؛ فكانت مثلاً فى أيام استعمار أمريكا محطة للسفن الخارجة من أوربا والمنطلقة نحو أمريكا تحمل المهاجرين ، ولتلك القادمة من الغرب تحمل السلع والمنتجات التى تفرغ فى موانى بريطانيا استعداداً لنقلها إلى سفن أخرى تتولى توزيعها على الموانى الأوربية . وهكذا تولت بريطانيا وموانيها مهمة الوساطة البحرية والتجارية بين أوربا وأمريكا من جهة ، ثم بين أوربا وبقية المستعمرات فيما وراء البحار من جهة أخرى . وقد عرف البريطانيون كيف يفيدون من هذه الوساطة إلى أبعد الحدود ، فنما أسطولهم التجارى ، وازدهرت موانيهم وأسواقهم ، ومنها لندن ذاتها التى صارت فيما بعد ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، مركزاً هاماً من مراكز التسويق والمعاملات التجارية والمالية . . .

ومعروف أن التجارة والاشتغال بشؤون المال والقراطيس من أربح المهن وأبلغها اتصالاً بالحياة والعلاقات الدولية الحديثة . وقد استطاعت بريطانيا بسبقها فى هذه الشؤون أن تدعم مركزها العالمى بين الأمم إلى حد كبير ؛ وساعدها من ناحية التجارة والملاحة البحرية العالمية أن شعبها بحرى بحكم

تكوينه ، وأن شواطئها غنية بالمرافىء الطبيعية ، وبمصبات الأنهار الواسعة والصالحة للملاحة ، وأن تيار الخليج الدفىء يدور من حولها ، فيدفئ مياهها ويمنع تجمدها وعرقلة الملاحة فيها فى أشهر الشتاء . وبذلك كله كانت الطبيعة عوناً للإنسان فى بناء قوة بريطانيا الملاحية .

وأما الناحية الثالثة التى أثر فيها الموقع الجغرافى لجزر بريطانيا فهى الناحية العسكرية . ذلك أن البحر الذى يفصل بين الجزر والقارة أضفى على بريطانيا نوعاً من الوقاية والأمان . وقد كان على بريطانيا أن تشارك فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة فى العهد الحديث ؛ ولكنها بحكم إحاطة البحر بها ، وبما تجمع لها من قوة البحر وعُدَّته ، كانت تلاقى أعداءها على صفحة الماء إن كان لهم من الأساطيل ما يشجعهم على تحديها أو محاولة قهرها ، كما حدث أيام حرب الأرمادا التى شنها الأسبان ، أو فوق أرض القارة وفى ميادين الأراضى الوطيئة وشمال فرنسا وأسبانيا وغيرها إن قعد العدو فى أوربا ولم يكن له من الأساطيل ما يناظر قوة بريطانيا سيدة البحار . ولذلك كله فإن أرض الجزر البريطانية ذاتها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ، وإنما كانت بريطانيا تتخذ ميادينها البرية فى أرض غيرها من دول القارة التى أصابها الدمار والخراب مرة تلو مرة ؛ وحتى فى هذه الحرب المنتهية لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومرافقها العسكرية والمدنية على حد سواء . وهكذا استطاعت بريطانيا ، بفضل هذه الميزة الكبيرة ، أن تخرج من حروبها الكثيرة سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ، على عكس أمم أوربا البرية التى اكتوت مدنها وقراها ومضانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، والتى كان عليها عقب كل حرب أن تنفق السنين الكثيرة فى إصلاح ما خربته الحرب قبل أن تقف على قدميها وتجاهد جهاد الأقوياء .

بل هكذا كانت بريطانيا أسبق من غيرها إلى النهوض فى سنوات السلم ، واستعادة أسباب الرخاء والمنافسة القوية فى الشؤون الخارجية والتوسع الاقتصادى العالمى ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — وعلى وجه الإجمال — دون أن تمس أرضها أو مرافقها المادية بشىء يذكر ؛ فكأن كل حرب أوربية ساهمت فيها بريطانيا — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — كانت تضيف إلى

مقدرتها على المنافسة العالمية بالنسبة لغيرها من أمم أوربا المكافحة ، والتى كثيرا ما شغلتها شؤونها الداخلية فى أعقاب الحرب وألهتها ، ولو لى حين ، عن أن تنافس فى ميدان التوسع الأوربى خارج القارة .

إلى هذه الأسباب جميعاً يرجع السر فى قوة بريطانيا وسبقها فى العصر الحديث . وهناك من غير شك أسباب أخرى — سياسية وتاريخية على وجه الخصوص — لم نحط بها ولم نشر إليها فى هذا المقال . ولكن ما أتينا به من المقومات الطبيعية والبشرية يكفى لنتفهم منه ن ما تجمّع لبريطانيا من القوة لم يأت نتيجة المصادفة ، وإنما هو قد ترتب على توافر عدد من العوامل والأسباب التى كانت تعمل متداخلة متكاملة ، والتى أتم بعضها بعضا حتى استطاعت هذه الجزر الصغيرة وسكانها المحدثون فى المدنية والمحدودون فى العدد أن يكوّنوا أمة قوية غنية ، قادرة على أن تسبق غيرها من الأمم الحديثة فى ميادين العمل والجهاد والتوسع والاستعمار ، بل قادرة أن تتخذ لنفسها مركز القيادة فى ميدان السيطرة العالمية ، فأنشأت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، جمعت فيها بين أهل الشرق وأهل الغرب ، وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، على نحو لم يسبق له نظير فى التاريخ . وقد ثبتت تلك الإمبراطورية لكثير من المحن والأزمات ؛ بل كانت فى الغالب تخرج من أزماتها أقوى مما دخلت . . . أو هى على الأقل كان هذا شأنها فيما مر بها من أزمات سابقة ، حتى جاءت هذه الحرب الأخيرة بأعقابها ونتائجها البعيدة التى لا يعلم مداها وأثرها النهائى غير الله !

ولكن ما لنا نتحفظ إلى هذا الحد ولا نحاول أن نستشف المستقبل فى موضوع نسعى الآن إلى أن نلجه من الناحية العلمية الخالصة ؟ ألأن هذا المستقبل مثقل بالاحتمالات التى لا ضابط لها ولا حاكم ؟ أم لأن هناك عوامل جديدة لا ترتبط بقوة بريطانيا ، وإنما تتصل بمصادر أخرى للقوى فى جهات أخرى من العالم ؟ أم لأن مبدأ السيطرة العالمية وقيامه على أساس التحكم فى اتصالات أوربا بالخارج لم يعد هو الحاكم الوحيد فى توازن القوى الدولية ؟ أم لأن الإنسانية أخذت تسير إلى غاية جديدة متلمسة طرقاً جديدة غير ما اعتادت أن تسير فيه خلال هذه الأجيال الأخيرة ؟ أم لأن بريطانيا التى كان

لها السبق فى ميدان السيطرة العالمية على غيرها من أمم أوربا قد بدأت تفقد تلك الميزة ، فلحقت بها أمم جديدة بعضها فى أوربا وبعضها فى خارجها ؛ ولا بد من أن تلاحق الأمم بعضها بعضاً ، وأن يداول الله الأيام بين الناس على نحو جديد لن يكشف عن نتيجته غير الزمن ؟ قد تكون كل هذه الاحتمالات من الحقيقة فى شئ يسير أو خطير ؛ ولكن الشئ الذى نستطيع أن نستبينه — ومن الخير لنا أن نستبينه واضحاً جايًا — هو أن الاتجاهات الحديثة فى اتصالات العالم ، وفى علاقات الدول والأمم بعضها ببعض ، قد أخذت تتبلور خلال هذا الجيل الأخير ، حتى اتخذت صورتها الواضحة مع نهاية هذه الحرب الأخيرة . وكل من يدرس النضال الحديث بين الأمم فى صورته الجديدة ، التى برزت للناس فى أواخر مراحل الحرب ، يدرك فى غير عناء أن الجماعات البشرية سائرة نحو التكتل ، وأن مستقبل القوة معقود لواؤه للأقوياء الكثيرين فى العدد والأغنياء فى الموارد ؛ ولم يعد هناك فى الحروب الكبرى التى توجه مصاير العالم شئ اسمه أمم صغيرة أو أمم متوسطة ، وإنما هناك أمم كبيرة تلتف من حولها أمم صغيرة وتتذبذب بينها أمم متوسطة أو شبه كبيرة . وقد خرجنا من هذه الحرب المنتهية — إلى جانب إقرار كيان الإمبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها فى بعض الأطراف — بأمتين كبيرتين ، ليس من اليسير حصر مواردها الظاهرة والكامنة ، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ؛ وبأمة أخرى قد يبدو شأنها خاملاً فى الوقت الحاضر ، ولكن المستقبل كفيل بالكشف عن قوتها الهائلة فى المال والرجال ، هى الصين التى تحتل مساحة تناهز مساحة أوربا بأسرها وتزيد عليها فى عدد السكان ؛ ثم بأمة أخرى عريقة فى المدنية والثقافة هى الأمة الفرنسية ، ولكن لن تبلغ ، هى وإمبراطوريتها ، من القوة المادية بعض ما بلغ الآخرون . على أن الشئ الذى لا يخلو من مغزى حقيقى هو أن بعض فلاسفة الوقت الحاضر وساسته الراسخين يرون بحق أن بريطانيا إذا انفردت عن إمبراطوريتها ، وتخلت عن سندها من الأمم الأخرى — أو تخلى عنها ذلك السند — فإنها لن تعدو أن تكون قوة متوسطة وأمة من المرتبة الثانية بين أمم المستقبل . ويظهر أن حلفاءنا البريطانيين ، رغم كل ما يقال من بطء إدراكهم وجنوحهم إلى التسويف بالوقت فى كثير من الأشياء ، كانوا أسرع الناس إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى

العمل على تلافى مصدر الضعف الجديد الذى يهدد كيانهم الدولى والإمبراطورى . وإذا كان لنا أن نقرأ النتائج من المقدمات ، فإن ساسة بريطانيا يحاولون الآن رسم الخطة وتلمس الطريق إلى استكمال أسباب قوتهم المهددة ؛ فالإمبراطورية إن أرادت أن تقف أمام منافسيها فى المستقبل ، ينبغى أن تزيد من أسباب الترابط بين أجزائها ، وينبغى فوق ذلك أن تعمل على تكتل القوى فى مآخذ الإمبراطورية ومناطق الخطر فيها . وقد يكون الشرق الأدنى أو الأوسط مكمن الخطر الأكبر فى بناء الإمبراطورية . وبريطانيا محتاجة فى هذه المنطقة إلى أن تجمع من القوى وأن تكسب من الصداقات أكبر قدر تستطيع أن تجعله الى جانبها . ومهما أظهر ساستها فى الوقت الحاضر من ألوان الصلف والاعتزاز ، ومهما تأثرت أقوالهم وأفعالهم بما يستشعرون فى هذه اللحظة من قوة مصدرها هذا النصر العظيم الذى أحرزته الإمبراطورية وحلفاؤها بأغلى ثمن ، فلا شك أنهم مدركون أن احتياج بريطانيا ، بحكم ما تمخضت عنه الحرب ، إلى الأمم الصغيرة والمتوسطة أكبر من احتياج تلك الأمم إليها . ولئن قيل فى وقت مضى إن قوة بريطانيا ضرورية للدفاع عن الشرق وأبوابه ومسالكه ، فإن من الحق أن يقال فى المستقبل إن صداقة هذا الشرق ألزم لسلامة بريطانيا وإمبراطوريتها من أية قوة تستطيع أن تخف بها إلى ميادينه . وليس من شك فى أن بريطانيا وساستها ، بل قادتها العسكريين أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، إن لم يعترفوا بها فى العلانية . وحقيق بأهل هذا الشرق وقادته أن يدركوا هذه الحقيقة على وجهها الصحيح ، قبل أن يحددوا موقفهم ، وقبل أن يرسموا خطتهم ، وينظموا علاقات بلادهم الدولية فى المستقبل . وقد يكون من الحق علينا لأنفسنا وللإنسانية جمعاء أن نعرف قدر أنفسنا وقد عرفه الناس ! بل قد يكون من الخير لنا وللإنسانية جمعاء — ونحن نعيش فى مهب العاصفة بين قوى العالم الجبارة — أن نترسم خطانا فى نور وتبصر ، وأن نتلمس سبيلنا إلى التعاون الدولى فى حزم واستقلال !

سليمان مظهر